جدلية العلاقة بين الشعر والسلطة في العصر المملوكي(*)

د. ياسين الأيوبي(**)

تراوح تأثير السلطة في الشعر والشعراء والكتّاب، في العصر المملوكي، ما بين الهبات والصدقات التي كانت تمنح لسائر القطاعات ومنها قطاع الشعراء... والرعاية المباشرة من توظيف، ومصاحبة، الى مطارحة الشعر، واقتراح الموضوعات، وما الى ذلك.. وهو ما تعالجه العناوين الآتية.

أولاً: علاقة السلطة بالشعر:

أردنا بذلك نظرة السلطان الى جمهرة الشعراء، وكيفية تعامله معهم، وما أدى ذلك الى نمطية معينة من الكتابة الشعرية هي وليدة مواقف وأحاسيس معظمها الى جانب السلطة.

1 ـ فضل الملوك والأمراء:

من الأمثلة الدّالة على ذلك حكاية الشاعر المصري **جمال الدين بن نباته** المتوفى سنة 768 هـ مع الملكين الأيوبيين **المؤيد**، **أبي الفداء**، وولده **الأفضل** حيث بلغت منزلته لديهما، ولا سيما لدى المؤيد، درجة لم يرقَ إليها شاعر آخر، باستثناء قلة بينهم **أبو الطيب المتنبي** مع الأمير **سيف الدولة الحمداني**، و**صفي الدين الحلّي** مع ملوك بني أرتُق والملك المؤيد نفسه، وسيأتي الكلام عليهما فيما بعد.

لقد قدّم الملك **المؤيد**[1] (وهو أحد الأمراء الأيوبيين الذين أكرمهم الملك **الناصر محمد بن قلاوون**). فقد أقطعه ولاية حماه وجعله ملكاً عليها لما تمتّع به المؤيد من قدرات ومناقب علمية وأدبية وخلقية رفيعة. توفي المؤيد سنة 732 هـ/1331 م. للشاعر ابن نباتة كثيراً من النعم والمراتب والهبات عبّر عنها الشاعر وصوّرها في شعره بأمانة تكاد تكون حرفية. وهو ما عرف لدى الشاعر بـ «**المؤيّديّات**». فقد كفاه المؤيد ذلّ السؤال

(*) هذا البحث، هو قسم ثان وأخير لدراسة مطولة، نشر القسم الأول منها في مجلة «الفكر العربي المعاصر» التي تصدر في بيروت، عدد 24 شباط عام 1983، وهو بعنوان: «بنية الدولة المملوكية».

(**) كلية الآداب والعلوم الانسانية ـ الجامعة اللبنانية.

وابتذال الشعر فأجازه وأنابه ووظف له راتباً كل عام»[2]. ثم توطدت العلاقة فغدا الشاعر صفيَّ **المؤيد** وصاحبه ورفيقه في مناسبات عدة، ولا سيما مجالس الأدب والشعر مع عدد آخر من الشعراء والأدباء، فكان لا بد من نظم قصائده «المؤيديات» التي حملت شكر الشاعر وطمأنينة روحه المتعطشة الى حاكم أديب عالم **كأبي الفداء**.

«صُنْتَني عن أذى الزمان وقد حا
ولَ حَرْبِي واستكبر استكبارا
وانبرى غيثُكَ الهَون بجدوى
علَّمَتني مدائحاً لا تُبارى»[3]

ثم يقول:

«لولاك ما أمستْ قريحتي
الكليلةُ شاعرهْ
أنتَ الذي روَّتْ غمائمهُ
ربايَ العاطره
فلقد وجدتُ ديارَ مُلْككَ
بالسعادة عامره
قَهرتْ حماةُ لي العِدَا
فحماةُ عندي القاهرهْ»[4]

ولم يكن **صفي الدين الحلّي** (المتوفى سنة 750 هـ/1349 م) أقلَّ تنعّماً مع **الملك المؤيد**، من **ابن نباتة**، فقد حظي هو الآخر بأيادٍ بيضاء وأيام سنيَّة سال فيها مداد حبره الشعري، وعبر عن ذلك بقصائد وموشحات حفظها لنا ديوانه المطبوع، من هذه القصائد واحدة بعنوان «الملك الجامع الفضائل» ومطلعها:

«لا راجعَ الطرْفُ بالـلقا وَسَنَهْ
إنْ ذاق غمضاً من بعدكم وسِنَهْ

ومنها:

ولو بمَدْح المؤيد اعتبروا
لَبُدِّلتْ سيئاتُهم حسنَهْ
الملك الجامع الفضائلَ والبا
ذلُ في الصالحات ما خزنَهْ
... أو سَعْتَ للعَبْد من هباتك
ما أضاف عن حَمْل بعضه عَطَنَهْ
آنَسَهُ فضلُكمْ فما طلبتْ
مسكَنَهُ نفسُه، ولا سكَنَهْ
أسْلاهُ عن أهله صنيعكُمْ
به، وأنساهُ ظلُّكمْ وطَنَهْ..»[5]

وقال **الحلّي**، من قصيدة يشكر فيها إنعامه وقد حمل إليه تُحَفاً وكسواتِ البيت وآلاته ومهماته جميعها:

«وقافيةٍ شبيهِ الشمس حُسْناً
تَرَدَّدُ بين كفّيَ واليراعِ
لها فضلٌ على غرر القوافي
كما فضلُ البقاع على البقاعِ
غدتْ تُثني على علياك لمّا
ضمْنتَ لربها نُجْحَ المساعيَ»[6]

ولم تكن علاقةُ شاعرنا بالملك **الأفضل** أقلّ وثوقاً مما كانت عليه مع **المؤيد**. بل تجاوزت العلاقةُ كل المقاييس السابقة المألوفة بحيث «تحولتْ الى نوعٍ من المخالطة «الكفوءة» أو المتكافئة، فيخرجان معاً الى الصيد، ويلعبان برماية البندق، فتُحملُ الهدايا والتحف من الأفضل الى الشاعر الذي كان يبعث الى الملك بغلام تركي يعتذر إليه عن الانقطاع ويبدي شغفاً بلقياه»[7].

أما العلاقة التي تُعدُّ نموذجاً للعلاقات المميزة بين الشعراء والحكام، فهي تلك التي كانت **للصفي الحلّي** مع ملوك بني أُرْتُق الذين حكموا مدينة «**ماردين**» من قبل سلاطين المغول، ومُنِحوا ـ كملوك بني أيوب في حماه ـ استقلالاً ذاتياً واسع المدى، دفعت **الشاعر الحلّي** الى الاقامة الطويلة في بلادهم، يعيش مع ملوك

هـذه المدينـة أحلى أيـام عمـره، بمعـزل عن الفتن والحروب والمطامع الجشعة. وهكذا استقر الشـاعر في كنف بني أرتق استقـراراً نـادراً، فكـان لـه مـرتّبٌ يتقاضاه من ملوكهم. جَمَعَ منه ومن الأعطيات والهدايا ومن أرباحه التجارية ثـروة كبيرة بلغت حـدود المائـة ألف دينـار[8]. فكـانت قصـائـدُه «الأرتقيـات» التي سمّاهـا: «درر النحـور في مـدائـح الملك المنصـور» ـ نجم الدين أبي الفتح غازي ـ وهي عبارة عن تسْـع وعشرين قصيـدة، كـل واحـدة منهـا عـلى حـرف من حـروف الهجاء، تبـدأ أبياتُ القصيـدة كلها، وتنتهي بحرف واحد، وهكذا القصائد التسع والعشرون[9].

نورد من ذلك بيتين من قصيدته الهمزية:

«أُنْهيـتُ عـن قـومـي بمَـلْكٍ عـنـدهُ
تَـنْسَى الـبـنـون فـضـائـلَ الآبـاءِ
إني تـركـتُ الـنـاس حـين وجـدتُـهُ
تَـرْكَ الـتـيـمُّـمِ في وجـود المـاءِ»[10]

هذا من حيث العطاء المادي والمعنوي الذي رمزنـا إليه بمثالين اثنين: واحـد للشاعـر ابن نباتـة المصري، والثاني لصفي الدين الحلّي، والأمثلة على ذلك كثيرة لا مجال لعرضها.

وأما من حيث التأمين الحياتي الـدائم فقد قـامت السلطة بما يشبه وظـائفنا الحكـوميـة اليـوم، ووظّفتْ معـظم الكتّاب والشعـراء في شتى ميـادين الخـدمـات الرسمية العامة ذات النفوذ، نورد بعض الأسماء على سبيـل التأكيـد، كالشـاعر ابن نبـاتـة الـذي استـطاع بفضل القاضي شهـاب الدين بن فضـل الله العمري، أن يحقق حلماً طـالما راوده وهـو التـوقيـع في ديـوان السلطان أو نائبه. وهي وظيفة عالية لم يكن يقوم بها الّا كتّاب الانشاء، ثم كتّاب السرّ[11] وكان ذلـك سنة 743 هـ، في حكم السلطان النـاصر أحمد بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون.

ومن الأسماء الأدبية الأخرى التي شغلت مناصب عـالية في دولـة المماليـك، كـلٌّ من الشعـراء «الأمـير سيف الدين أبي الحسن علي بن عمر بن قزل المعروف بـ «المُشِـدّ» الذي تـولى شَـدَّ الـدواوين بمصر سنـواتٍ طوالًا»[12] و«الشاعر الشيخ الامـام الربّـاني أبي زكريـا يحيى بـن يـوسـف بـن عـبـدالـسـلام الصرصري الضريـر»[13] والشاعـر الأمـير جمال الـدين مـوسى بن يغمور بن بُلَيْمان، الذي رقيَ رتبة النيابة، وكـان أول المستشـارين لدى السلطان الـظاهـر بيـبرس الـذي لم يكن يصغي إلا إليـه، يفعل مـا يشير بـه عليه، وقـد تـوفي سنة 663 هـ[14]. والـرئيس الشاعـر كمال الـدين أحمـد بن عبدالعـزيـز المعـروف بـابن العجمي، كتب للملك الناصر صلاح الدين يوسف، وكان من أعيان الكتّـاب وأماثلهم[15] والشـاعـر القـاضي عـلاءالـدين أحمد بن عبدالوهاب المعـروف بابن بنت الأعـزّ الذي تـولّى منصب القضـاء، حِسْبـةَ القـاهـرة، ونـظر الأحباس، فضلاً عن التـدريس، وقد تـوفي بالقـاهرة سنة 699 هـ[16].

وبكلمـة موجـزه، نقـول: إنّ هنـاك نقلةً نـوعيـة حـدثت لشعراء هـذا العصر وكتّابـه، بحيث لا نكاد نجـد واحداً منهم لم يكن في أعـلى الوظـائف، وملقّباً بـأحسن الألقـاب، كـالأمـير، والـرئيس، والشيـخ، والصاحب، وغيرها ممّا لم نعهده مع معظم شعراء بني العباس ولا بني أمية، على عظمة هؤلاء وطول باعهم الشعـري والسيـاسي. وكله يؤكـد علو المكـانـة التي عرفها الشعراء المماليك، وتقدير السلاطين والأمراء، لعلمهم وأدبهم.

ونمثّل لذلك أيضاً بالصاحب والوزير شمس الدين محمـد بن عثمان المعـروف بـابن السُّلْعُـوس، أحـد الشعـراء الكتّـاب المقـربـين جـداً من الملك الأشرف خليـلبن قلاوون الـذيَ عيّنـهُ في زمن والـده محتسب دمشق؛ ثم لمّا مات المنصـور قلاوون، عيّنـهُ الأشرف وزيـراً لـه المقـام العـالي، والحظ الأوفـر من وجْـدان

الملك، «فكان اذا ركب تمشي الأمراء الكبار في خدمته»؛ حتى الوزير علم الدين **سنجر الشجاعي** كان يقف في خدمته[17].

وفيما يتعلق بوظائف الدواوين، كانت هناك وظيفة كاتب الانشاء التي قَسمها المماليك الى طبقتين:

الأولى: **كتّاب الدست**، وهم الذين يجلسون بين يدي السلطان، وتحت كاتب السرّ وقد رَأَسَهم في البداية، الكاتب **القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر**، الذي جعل كاتب الديوان ذا مقام عالٍ، يحافظ عليه معظم سلاطين المماليك من بعد.

والثانية: **كتّاب الدرج**، وهم الموقّعون على ما يصدر عن كاتب السرّ أو الأمير أو الوزير[18].

وعلى هذا فإن كتابة السرّ التي تقلّدها عدد من الكتاب الشعراء، هي بمثابة وسام يعلقه سلاطين المماليك على صدور الكتّاب والشعراء، لأنهم وضعوهم، بذلك، في موضعٍ لم يكن يعرفه أو يتوصل إليه خاصة السلطان، وكبار رجال الدولة، الذين أصيبوا بالغيرة والحسد الشديدين لِما كان يملكه الكاتب من أسرار، طالما سَعَوا هم إليها بطريقة من الطرق. فصح فيه ـ أي كاتب السر ـ قول **عبدالله بن الأزرق**، إنْ هو وَشَى أو تلاعبَ بالأسرار:

«فلا فرقَ عندي بين قاضٍ وكاتبٍ
وَشَى ذا بحقٍّ أوقضى بباطلٍ»[19]

عَدا الوظائف العالية التي شغلها الشعراء والكتاب، حظي هؤلاء بنعمةٍ أخرى هي احتضانهم معنوياً وعملياً من قبل السلاطين والأمراء الكبار، فيُحسَبون على هذا البلاط أو ذاك؛ ويكتسبون هذه الصفة فتلتصق بهم، كما يُلصَقُ اللقب أو الكُنْيَة، فيقال عن هذا الشاعر أو غيره، من شعراء الملك الناصر، أو الظاهر، أو المنصور.. وهكذا.. كما نُسبَ الشاعران **ابن نباتة وصفي الدين الحلّي** ـ في مرحلة طويلة من حياتهما ـ الى البلاط الأيوبي، لدى الملكين **المؤيد والأفضل**، اللذين حكما حماه في ظل دولة المماليك.

وكانتساب الشاعر تاج الدين التنوخي ـ محمد بن عبدالمنعم ـ المعروف **بابن شُقَيْر** الى بلاط الملك الناصر (صلاح الدين يوسف بن عبدالعزيز)[20].

أو الشاعر أمين الدين، علي بن عثمان، المعروف **بأمين الدين السليماني** الذي وصفه **ابن تغري بردي** بقوله: «كان فاضلاً مقتدراً على النظم، وهو من أعيان شعراء الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام»[21].

أو الشاعر محمد بن يوسف **التلْعْفري** الذي نَسَبه ابن تغري بردي الى شعراء الملك الأشرف **موسى شاه أرمن الأيوبي**[22].

وقد لا نصل الى نهاية اذا نحن تقصّينا محاضن الشعراء و«مرابضهم» في البلاطات والقصور، لأن هذا كان من دأب السلطة المملوكية ومن استظل بظلها من الحكام والسلاطين البعيدين عن مركز السلطة في الديار المصرية، يكرمون الأدب وأهله، ويسعون الى استرضاء الناس وكسْب تأييدهم؛ ومَنْ أقدَرُ على إذاعة أخبارهم، ونَشْرِ فضائلهم، من الشعراء؟

من أجل ذلك لم يكتف السلطان بالتوظيف و«التنسيب» وصرف المعاش، بل كان يوزع الصدقات الدورية على الشعراء الذين لم يكن لهم حظوة دائمة في الوظيفة أو «الاحتواء» البلاطي.. ويمنح المكافآت والخلع والهدايا؛ حتى اذا حُجبت الصدقةُ عن بعض الشعراء، ارتفع صوتهم معترضين، منتقدين، كما فعل الشاعر أبو عمرو عثمان بن سعيد المعروف **بابن تَوْلُوَا**، ساخراً من قاضي مصر يومئذٍ، حينما أمر بقطع صدقات

الشعراء، باستثناء الشاعر **أبي الحسين الجزار**، فقال ابن تولوا:

«تَـقَـدَّمَ الـقـاضـي لـنُـوّابـهِ
بـقَـطْـعِ رِزْقِ الـبَـرِّ والـفـاجـرِ
ووَفَّـر الجـزَّارَ مِـنْ بـيـنـهـمْ
فـاعْـجَبْ لِـلُطفِ الـتـيس بـالجـازرِ»[23]

وهو القائل، هاجياً بألم ومرارة، واقعه المعيشي في مصر:

«يـا أهـل مصرٍ وجـدتُ أيـديَـكُـمْ
عـن بَسْـطهـا بـالـنـوالِ، مـنـقـبـضَـهْ
فـمـذْ عـدمـتُ الـغـذاء عـنـدكـمُ
أكـلـتُ كُـتْـبـي كـأنـنـي أَرَضَـهْ»[24]

2 ـ تأثير السلطة المباشر في النتاج الأدبي:

بلغ تـأثـير الملوك والأعيـان في حيـاة الكتّـاب والشعراء، حدَّ التدخّل المباشر في نتاجهم الأدبي، من نظْم، وجمع أشعار ودواوين، واقتراح الفنون الشعرية وأوزانها وقـوافيهـا، أو تـأليف وتصنيف، أو حتى «تأمير»، كما حصل **لابن نباتة** في البـلاط المؤيّدي[25]. وتلك مأثرة أخرى من مآثر هذا العصر وسلاطينه، لا يسع الدارس نكرانها أو تجاهلها.

فأخبار **ابن نباتة** في البلاط الأيوبي الحموي، بادية لكـلِ ذي اهتـمام بشعـره وعصره؛ فقـد جمـع وألَّف وصنَّف معـظم نـتاجـه، بـطلب من الملك المؤيـد، مباشرةً أو عن طريق كتّابه وأولياء دولته، أورد بعضها على سبيل المثال:

«منتخب الهدية في المدائح المؤيـديّة» وهي قصـائد المـدح المسطّرة في الملك **المؤيـد**، أمره بجمعهـا أحـد أوليـاء الـدولـة المؤيـديـة لتقـديمهـا هـديـة الى الملك المؤيد[26].

«سرْح العيـون في شرح رسـالـة ابن زيدون» وهـو عمـل نقدي، طلبـه منه **المؤيـد** شخصياً وألـحَّ عليـه بقبول هذه المهمة، بعد أن اعتذر **ابن نباته**، في بادىء الأمر.

«الفاضل من إنشـاء الفاضـل»، وهو مختـارات من نـثر القـاضي الفـاضـل الأدبي، الـذي سمـع **المؤيـد** مقتطفات منه، فأمر الشاعـر أن يجمع ذلـك في كتاب خاص[27].

ويـرى الدكتـور **عمر مـوسى باشـا** أنّ أشهر آثـاره النـثرية ـ بـالاضافـة الى آثاره الشعـرية ـ قـد وُضعتْ للملك **المؤيد أبي الفداء**، وبتشجيـع منه» استنـاداً الى ما يقوله **ابن نباتة** نفسه في فاتحة خطبة كل كتاب[28].

أمـا **صفي الدين الحـلّي**، فقد تـأثـر بـدوره بـذوق الملك **المؤيـد** الأدبي، كان من حصيلة ذلـك «أن نظم الصفي بعض القصائد، منها ما هو من اقتراح **المؤيـد** في الوزن والقافية، ومنها ما كان رغبة في ارضاء ذوقـه الشعـري.. وقـد أمـلى عليـه **المؤيـد**، وزنـاً من الموشحات وطلب منه توشيحه بلزوم ما لا يلزم»[29].

ومن القصـائد التي اقـترحهـا عليـه المؤيـد، بحـراً وقافيةً: **«الملك الجامع الفضائل»** المـار ذكرهـا أعلاه. أما الموشح المقترح في «لزوم ما لا يلزم» فهـو بعنوان: **«في حمى الملك»**[30].

ولا ننسى المناسبة التي دفعت **صفي الـدين** الى جمع أشعاره كلها في ديوان واحد، وكـان ذلك بـطلب من كـاتب السرّ ورئيس كتّـاب الانشـاء في بـلاط الملك **الناصر محمد بن قلاوون**، وباشـارة من هذا الأخـير، في الموضوعـات، والتبويب، والـترتيب، ليكون ـ كـما يقول **الصفي** في مقدمة ديوانـه ـ «ديوانـاً للمحاضرة، ومجموعاً للمذاكرة؛ فأجبت بالسمع والطاعة.»[31].

ثانياً: الشعر والسلطة:

اذا كـانت السلطة قـد مـدّت الشعـراء بـالألقـاب

والأرزاق والوظائف والمراتب العالية، فإنّ هؤلاء أيضاً، قدْ وَفوا بالمعطيات الممنوحة الموفورة لأقلامهم، وأسهموا في حركة العمران والتطور، ونطقوا بما ملكتْ أيمانهم من حب واعجاب وتعظيم، للسلطان العادل القادر، المتمكن من أعدائه؛ ففاضتْ عواطفهم تُسطِّر قصائد الثناء والتقدير، وترفع من مستوى النصر، أو الإنجاز الحضاري العمراني، محققين بذلك معادلة لا بد منها: **العطاء بالعطاء، والتضحية والصمود بالاشادة والتقدير**.

ومن طبيعة هذا العصر، أن حركة الشعر فيه لم تدخل في صراعات حزبية أو حتى شعوبية، كما كانت الحال في العصرين السابقين: العباسي والأموي. وجلّ ما هنالك تأييد وتعضيد لسياسة الدولة المملوكية في حربها مع أعداء الاسلام، والذود عن حياض الديار الاسلامية التي كانت في كنفها، ومعظمها من البلدان العربية. وفي ذلك شَبَهٌ كبير بحركة الشعر في العصر الاسلامي الأول، حيث كانت المعركة محتدمة بين شعراء الدعوة الاسلامية وشعراء الكفّار.

أضف الى ذلك الصدق الشعوري الذي يصبغ معظم القصائد «الجهادية» أو حتى «السلطانية» التي كانت تقال في مستهلّ ولاية السلاطين وما يشبهها من مناسبات قومية أو دينية. ومع الصدق الشعوري صدق فنّي يصل في بعض الأحيان الى حدود الشعر الملحمي، لطول بعض القصائد، واحتدام التصوير الفني لمعارك النصر المدوّية[32].

وقد يتبادر الى الذهن سؤال: **هل استطاع شعراء هذه المرحلة استباق الأحداث والارهاص بما يَجِدُّ في مُقبل الأيام، ومصائر الأمم والشعوب؟؟**

فنجيب بأن معظم شعراء العربية، إن لم نقل جميعهم، لم يؤتوا هذه الخاصّية فيفعلوا ما فعل بعض شعراء الفرنجة المعاصرين، وبعض الشعراء العرب الحديثين، في هذا الموضوع، من مثل التنبُّؤ والتعبير المسبق عما تؤول اليه الحياة الانسانية والقومية من تحولات واضطرابات، عنيتُ بذلك، مثلاً، شاعراً عالمياً كـ ت. س. **إليوت**، أو شاعراً عربياً **كخليل حاوي**...

ولعل أبرز العناوين التي ينبغي تسجيلها، ومعالجتها في هذا المضمار:

1 ـ مواكبة الشعراء للمناسبات القومية والسلطانية.

2 ـ نفوذ الشعر في الواقع، والطموح، والفضل الكبير.

3 ـ الشعر النقدي المسؤول، في مسائل التقويم والتقدير.

4 ـ ثغرات في سلوك الشعراء..

5 ـ خاتمة..

1 ـ مواكبة الشعراء للمناسبات القومية والسلطانية:

لا بد بادىء بدء من تأكيد ناحية بالنسبة الى تقليد السلاطين مراسيم السلطنة من قبل الخليفة، وهي قيام الشعراء بما يشبه العمل (البروتوكولي) في إلقاء الخطب والقصائد، وهو عمل يدخل أساساً في صلب مهام الشاعر المنتسب الى بلاطات الدولة والمعيَّن في احدى وظائفها. من هذه الزاوية، لا أرى لزوم الانتقاص من قدر الشعراء والكتاب؛ وإلا كان علينا اليوم أن نجرد كل متحدث رسمي أو موظف حكومي يشيد بمناقب الحاكم والحكم، من صفات الكرامة الشخصية، وننعته بالذيلية والارتزاق الرخيص.

ونمثّل لهذا التقليد الذي أضحى عُرْفاً يمارَسُ مع كل سلطان جديد بقصيدة للشاعر الشيخ شهاب الدين **بن الأعرج السعدي** المتوفى سنة 785 هـ، وهو يُهنِّىء السلطان **الظاهر برقوق**،

السلطان السادس والعشرين في دولة المماليك، بقوله:

تَولَّى المُلْكَ برقوقُ المفدَّى
بسَعْدِ الجدِّ والأقدارُ حَتْمُ
... أتتْهُ أئمةُ الاسلام طُرّاً
الى أبوابه سعياً يؤمُّ
وجاء له الخليفةُ في سَوادٍ
فسَلْطَنَهُ وفي الآفاق رَغْمُ
وقلَّدهُ بسيف المُلْك طوْعاً
فيا لكَ صارماً، ما فيه ثَلْمُ
وأَلْبَسَهُ السوادَ فزادَ حُسْناً
كأنّ جبينَهُ بدرٌ مُتِمُّ»[33]

أمّا مواكبة السلطان في الوقائع القومية الكبيرة، من فتْح وانتصار، أو هزيمة وانكسار، فقد لهجتْ ألسنة الشعراء بذلك. ويأتي في مقدمة هؤلاء الشعراء شهاب الدين محمود بن سلمان الحلبي الملقب بـ **الشهاب محمود** (644 هـ ـ 725 هـ/1247 - 1325 م) الذي نظم قصيدة رائية طويلة أثْبتَ منها **ابن كثير** أربعين بيتاً، وحذف الباقي، وهو كثير.

وهي في مدح السلطان **أشرف خليل بن قلاوون** عقب انتصاره على جيش الروم وفتح قلعة الروم، الى الشمال من حلب. وكان يوماً مشهوداً خلَّده المؤرخون والكتاب والشعراء. ومن قصيدة **الشهاب محمود**، نورد الأبيات التالية:

«... صرفتَ إليهم همّةً لو صرفْتَها
الى البحر لاستولى على مَدِّه الجَزْرُ
وما قلعةُ الروم التي حُزْتَ فتْحَها
وإنْ عظمتْ، إلاّ الى غيره، جسْرُ
طليعةُ ما يأتي من الفتْح بعدها
كما لاحَ قبل الشمس في الأفق الفجرُ
فصبَّحْتَها بالجيش كالروض بهجةً
صوارمُهُ أنهارُهُ والقنا الزهرُ

... ولو وردتْ ماءَ الفرات خيولُهُمْ
لقيل هنا، قد كان فيها مضى نهرُ
... أقامتْ صلاةَ الحرْب ليلاً صخورُها
فأكثرُها شَفْعٌ وأكبرُها وتْرُ
فأضحتْ بها كالصَّبِّ يُخفي غرامَهُ
حذارَ أعاديهِ وفي قلبِهِ جمرُ
وشبَّتْ بها النيرانُ حتى تمزَّقتْ
وباحتْ بما أخفتْهُ وانهتكَ السِّتْرُ»[34]

قد لا ننصف الشاعر اذا قلنا: إنّ هذه القصيدة موفقة فقط **لأنّ ما فيها من نَفس ملحمي واستعارات وكنايات فنية غنيّة الايحاءات يجعلها في مصاف الشعر العربي الرفيع، في العصور كافة، حيث غاب التأنق اللفظي والزخرف البديعي، وتَنَحّى جانباً التعقيد اللغوي والمعاظلة الأسلوبية، ليحل محلّها انسيابُ الشعر الصادق، وتوهجُ القلم الذي يخطه، وهو شيء ليس اعتيادياً في عصر كعصر المماليك**.

وقبل هذه الوقعة «الأشرفية» المظفرة، كان للشهاب **محمود** حضور شعري آخر، مع السلطان **الظاهر بَيْبَرْس**، اثر بطولة الظاهر وجيشه مع جيش التتار على الحصون والثغور الشمالية الشرقية من الديار الشامية، موقعاً فيهم هزائم متلاحقة، ارتقى شعر **الشهاب** اليها، فصوَّر ذلك تصويراً جميلاً شَمخَ فيه صاحبه عبر النفَس الملحمي:

«سِرْ حيث شئتَ لكَ المُهيمنُ جارُ
واحكُمْ فطَوْعُ مرادِكَ الأقدارُ
لم يبقَ للدين الذي أظهرْتَهُ
يا ركنهُ، عند الأعادي ثارُ
لّما تراقصتِ الرؤوسُ وحرّكتْ
من مطرباتِ قسيِّكَ الأوتارُ
حملتْك أمواجُ الفراتِ ومَنْ رأى
بحْراً سواكَ تُقلُّهُ الأنهارُ
شبكتْ مساعيك المعاقلُ والورى

والـتـربُ والآسـادُ والأطـيـارُ
هـذي مـنـعـتَ، وهـؤلاء حَمـيـتَـهُـمْ
وسـقَـيْـتَ تـلـكَ وعـمَّ ذا الإيـسـارُ
فـلأمْـلأنّ الـدهـرَ فـيـكَ مـدائـحـاً
تـبقَى بقيـتَ، وتـذهـبُ الأعـصـارُ»[35]

وليست بعيـدة عن ذلـك ـ وإن عـلى شيء مـن التكلف البـديعي ـ قصـائـد الشـاعـر المملوكي **موفق الدين الأنصاري** ـ المشار إليه في الحاشيـة أدناه ـ في مواكبته انتصارات **السلطان قطز**، ثـالث سلاطين المماليك، وصـاحب النصر العظيم في **وقعـة عين جالوت** الشهيرة.

كذلك انتصار الملك الأيوبي **المنصـور الثاني**، ملك حمـاه، زمن **السلطان قـطز**، في معـارك مشـابهـة؛ فلنسمعْهُ يُهنِّىء المنصور، مشيداً ببطولته النادرة:

«روَّيـتَ أكـبـادَ الـقَـنـا بـدمـائـهـمْ
لّمـا أطـالَ سـواكَ في تـعـطـيـشـهـا
فـغـدا لـسـيـفـكَ في رقـاب كُـماتهـا
حَصْـدُ المنـاجـلِ في يَبيسِ حشيشهـا
. . . دارت رحى الحرب الـزبـون عليهمُ
فـغـدت رؤوسـهُـمُ حـطامَ جـريـشـهـا
وطـويـت عـن مصرٍ فـسيـحَ مـراحـلٍ
مـا بـين بُـرْكتها وبـين عـريشهـا. .»[36]

وقبل أن نختم الكلام عـلى هذه الفقـرة المخصصة لمواكبة الشعـراء للمناسبـات القوميـة الكـبرى يحسن التوقف قليلاً عند شاعر آخر واكب **السلطان المنصور قلاوون** في غزواته ومدافعـاته عن الثغـور الشاميـة في وجـه التتـار زمن السلطان المغـولي **غـازان**، وغـطّى بعض الشيء فُسْحـةً من النصر العسكـري الـواسـع الـذي لم يكن الشـاعـر المعنيّ هـذا وحـده في معمعـة الشعر، بل شاركه آخرون، بينهم الشاعر **علاءالـدين الوادعي** الذي قـال ساخـراً من قول **السلطان غـازان** عندما أعلن أنه جاء الى الشام للفرجـة، فإذا بـه يهزمُ شرَّ هزيمة:

«قـولـوا لـقـازانٍ بـأنّ جـيـوشـه
جـاءوا، فـفـرَّجْـنـاهـمُ بـالـشـامِ
في سَرْحـة المَـرْج الـتي هـامـاتهـمْ
مـنـثـورهـا، وشـقـائـق الأجـسـامِ
مـا كـان أشْـأمَهـا عـلـيـهـم فـرجـة
غـمَّتْ، وأبـركـهـا عـلى الإسـلام!»[37]

أما الشاعـر الذي رغبْنـا في التـوقف عنـده، **فهـو شمس الـدين الطيبي** (الحسـين بن محمد المتـوفى سنـة 743 هـ)[38]، فقد نظم قصيـدة طويلة تجـاوزت المائـة بيت، أورد منهـا الصفدي اثنـين وأربعين بيتـاً نختـار منها ما يلي:

1 ـ «بـرْقُ الـصـوارم لـلأبصـار يختـطفُ
والنقْـعُ يحكي سـحـابـاً بـالـدِّمـا يكفُ
2 ـ. . . يـقـي بهـم ملَّة الاسـلام نـاصرُهـا
كـما يـقي الـدرَّةَ المكنـونـةَ الـصَّـدَفُ
3 ـ وجـاهـدوا في سـبـيـلِ الله وانـتصروا
مـن بـعـد ظـلـمٍ وبمـا سـاءهـم أنِـفـوا
4 ـ . . . دارتْ عليهم من الشجعـان دائـرةٌ
فَـما نَـجـا سـالِمٌ مـنـهـم وقـد زَحَـفـوا
5 ـ فَـرّوا من السيف ملعـونـينَ حيث سَـرَوْا
وقُـتِّـلوا في الـبراري حـيـثـما ثُـقـفـوا
6 ـ ومَـلَّتِ الأرضُ قَـتْـلاهـم بمـا قَـذَفتْ
منهمْ وقـد ضـاقَ منهـا المُهـمِـهُ الـقَـذَفُ
7 ـ والـطيرُ والـوحشُ قـد عـافتْ لحـومَهُمُ
فـفـي مـزاج الـضـواري مـنـهـمُ قَـرَفُ

ثـم يخـاطب السلطان غازان بلغـة العشق والغـرام الذي يضطرم بصدر غازان «شوقاً» الى دمشق:

8 ـ ما أنتَ كُفْوُ عروس الشام تخطبها
جهلًا، وأنتَ إليها الهائمُ الدَّنِفُ
9 ـ قد ماتَ قبلَكَ آباءٌ بحَسْرتها
وكلهمْ مُغْرمٌ مُغْرىً بها كَلِفُ
10 ـ إنّ الذي في جحيم النار مسكنُهُ
لا تستباحُ له الجنّاتُ والغُرَفُ»[39]

لا أظن أن شعراً كهذا، هو من نوع الموالاة والمَدْح التقليدي الذي صيغتْ به معظم العصور الأدبية السابقة، إنما هو شحناتُ التوتر النفسي الجائشة في جنبات صاحبها، قُيِّضَ لها قلمٌ ناصع وقريحة نيّرة، وذهنٌ مثقفٌ بشتّى أفانين الثقافة المتاحة لأبناء هذا العصر. ولا أظن أني قرأتُ شعراً مبدعاً ـ بالمعنى الفنّي لكلمة «إبداع» ـ كالذي قرأته في الأبيات ذات الأرقام (6 - 10).

ويكفي العصر فخراً أن يكون بين ظهرانيه شعر رفيع كهذا، وشاعرٌ مجوِّد كالطيبي..

2 ـ نفوذ الشعر في الواقع، والطموح، والفضل الكبير:

درج بعض شعراء المماليك على مسايرة السلطان ومواكبته في المناسبات والمواسم وغيرها.. لكن البعض الآخر تجاوز ذلك الى ما هو أبعد من المواكبة؛ فبنوا لأنفسهم، وفي معظم قصائدهم، ولا سيما المدحية، هيكلًا أُطلق عليه اسم «دولة الشعر»، وهي كناية عن مشاعر تفوّق وتمايز دفعتْهم الى نوع من الفخر الذاتي في مضماري الشعر والقريحة الشعرية التي تدفع بالكلام الشعري. ومن هؤلاء الشعراء **ابن نباتة المصري** الذي لا يتردد، وهو في حضرة المديح السلطاني المؤيّدي، عن الاشادة بشعره وقصيدته، مُورِّياً ورامزاً بصور شعرية لا تقل عن بعض صور الشعر الرمزي الحديث مكانة وجمالاً:

«لِبابكَ يا ابْنَ الأكرمين بعثتها
أوانِسَ من مَدْحٍ عن الغَيْرِ جُفَّلا
وأرسلتُها غَرّاءَ كالغصن يانعاً
وزهرِ الربى ريّانَ، والريح سَلْسَلا
شبيتُ لها فكري وفاحتْ حروفُها
كأنيَ قد دخّنتُ في الطرس مندلا
وكم مثلِها أهديتُها طيَّ مُدْرجٍ
تكاد لفرط الشوق أن تتسلَّلا»[40]

من يقرأ هذه القصيدة لا يستغرب ما جاء به شاعر عربي معاصر هو الدكتور **بِشْر فارس** (1907 - 1963) من شعر رمزي ينطوي على مَعانٍ متشابهة متداخلة، في قصيدته المسماة «الى زائرة» والتي مطلعها:

«لو كنتِ ناصعةَ الجبينْ
هيهات تنقضُني الزيارهْ
ما روعةُ اللفظ المبينْ
السحرُ من وَحْي العباره..»[41]

ومن الشعراء من كان يرفض بعض الوظائف العالية، كمنصب القضاء، أكثرَ من مرة، مفضِّلًا عليه حياة حرة مستقلة لا ترتبط بأي قيد من قيود الدولة، كالشاعر الامام **علي بن سعيد البُصْراوي** المتوفى سنة 684 هـ. فالحياة عنده أَمْن وصحة وشبابٌ ومال، أو كما نظمه في ذلك شعراً:

«أَرى عناصرَ طِيبِ العَيْش أربعةً
مازال منها فطيبُ العيشِ قد زالا
أمْناً وصحةَ جسمٍ لا يخالطُها
مُغايرٌ، والشَّبابُ الغضّ والمالا»[42]

أمام هذا المفهوم الجميل للحياة لا بد من توضيح نقطة ها هنا، وهي صعوبة تحقيق هذا النمط من الحياة، وإن كان شيئاً مشروعاً؛ ولهذا كنا نرى الشعراء يتململون من العراقيل التي تُواجهُهمْ وتضعهم على مقربة من ذلّ السؤال؟ فينتفض بعضهم

ويأبى، ويُلوّح البعض الآخر بالابتعاد وقَصْد سبل أخرى مع ممدوحين آخرين. ويستسلم الباقي لشجون الحياة مكتفياً بالشكوى والتذمر.. ومن هذا القبيل الشاعر **جمال الدين أبو الحسين الجزّار** (601 - 679 هـ) وهو أحد كبار الشعراء في زمانه؛ وصفه **ابن تغري بردي** فقال: «كان من محاسن الدنيا، وله نوادر مستظرفة ومداعبات ومفاوضات مع شعراء عصره.»[43].

ومن أشعاره في شكوى الحياة، ما ذكره عن جهده المتواصل في سبيل الآخرين ولكن من غير مقابل يَسدُّ حاجة ولا يُذهبُ همّاً[44].

«أُكلِّفُ نفسي كل يوم وليلةٍ
همومـاً على من لا أفوز بخيرِه
كما سوَّدَ القصّارُ بالشمس وجْهَهُ
ليجهدَ في تبييضِ أثواب غيرِهِ»

(القصّار - هنا - مبيض الثياب).

وكان شاعرنا يعيش من حرْفة الجزارة (ذبح الخراف وبيع لحمها) ثم استرزق بالمدح فقصد قصور الأمراء والسلاطين، وكسب ثروة كبيرة. ولكنه كان كثير الانفاق مسرفاً على حرفته الأخيرة، وهي حرفة الشعر والأدب، فضلاً عن حرفته السابقة:

«يا أميراً يُرجَّى ويُخشَى لبأسٍ
ونَوالٍ في يوم حرب وسلْمِ
ليَ من حرفةِ الجزارة والآ
دابِ فقرٌ يكادُ ينسيني اسمي»[45]

ومن الشعراء الذين لم يرتزقوا بشعرهم ويبيعوه في أبهاء الملوك والأمراء، **صفي الدين الحلّي** الذي اختط لنفسه مبدأ سار عليه معظم الأوقات، وهو: «**ألاّ يمدح كريماً وإنْ جَلّ، إلاّ لما عدَّه زاداً للمآل في مديح النبيّ والآل**»[46].

وبالفعل، لم يجد هذا الشاعر عن جوهر هذا الخط. فما مدحَ للمدح، ولا ألقى بشعره - مع المُلْقين تقرباً وتنافساً لرضى الأعيان - وانما رد جميل الملوك واحتفاءهم به وأياديهم البيضاء عليه، بما يملكه من جميل القول والثناء، متمثلاً بقول المتنبي الشهير:

«لا خيلَ عندكَ تُهديها ولا مال،
فليُسْعِدِ النطقُ إن لم تُسعد الحال»

وهكذا فعل مع سلاطين بني أرتق، **والناصر محمد بن قلاوون**، والملكين الأيوبيين: **المؤيد والأفضل** اللذين لم ير في قصائده فيهما سوى الرد الخلقي النبيل، عملاً بما جاء في الآية الكريمة: ﴿**وإذا حُيّيتُمْ بتحية فَحيُّوا بأحسنَ منها، أو رُدّوها**﴾[47].

بقي أن نقول: إن الخطة شيء والتطبيق شيء آخر، هذا اذا أردنا أن نشدّد في تفسير الدوافع التي جعلت بعض الشعراء - أمثال صفي الدين المعتدّ بنفسه، العَزوف عن تعفير جبهته على أعتاب السلاطين - يبالغ في مدح بعض الملوك والأمراء، فيجعلهم شبه آلهة تمشي على الأرض (يسجد الملوك في أعتابهم وتخدم الأقدار في ركابهم)[48]. وقس على ذلك بقية الشعراء الذين ملأهم زهو في النفس وشعور مبكر بالتفوق. ومهما يكن فإننا لم نقرأ شعراً يتضرع فيه صاحبه الى ممدوحه لتنويله ما يصبو إليه، أو بعض ما يصبو، كما كانت الحال مع شاعر الفخر الأكبر والتعالي الأول في الشعر العربي - **أبي الطيب المتنبي** - في قوله لكافور:

«أبا المسك هل في الكأس شيء أناله
فإني أغني منذ حين، وتشربُ»[49]

3 - الشعر النقدي المسؤول وظاهرة التقويم والتقدير:

على الرغم من شيوع شعر المديح في ذلك العصر تمشياً مع تقاليد الشعر العربي منذ الجاهلية - حتى

عصر النهضة الأدبية، وكذلك شعر الغزل بتسمية الأنثوي والذكري: عفيفاً وماجناً.. . فإننا لم نعدم شعراء وَعَوا مسؤوليتهم الأدبية، وموقعهم المميز في مجتمع يسوده الجشع والغيرة والحسد وانعدام الحس القومي، فأناروا دنياهم ببعض ما ملكوا من شموع الكلام والمعرفة، وأشاروا الى مواضع الفساد والافساد، والتزلف والرشوة، والطمع، والجهل المستشري.. وغير ذلك مما نحاول عرضه في السطور التالية.

وأول ما يستدعي الذكر في هذا الصدد القصيدة الرائية الطويلة التي نظمها الشاعر الدمشقي المقدسي عبدالرحمن بن اسماعيل المعروف بأبي شامة. (599 هـ ـ 665 هـ) ونشرت في كتابه النفيس: «تراجم رجال القرنين السادس والسابع) وفيها يمدح الشاعر حرفته الأساسية: الفلاحة التي تكفيه مذلّة السؤال والخدمة في كنف الآخرين، وتورثه عفة النفس وطهارتها وحرية صاحبها، الى ما هنالك من تعرض لمفاسد المجتمع، وانحراف الحكام عن جادة الصواب في إسناد المناصب الى غير أهلها، وما سوى ذلك من حِكَم وآراء ونظرات صائبة مفيدة..

وهاك أهم ما تخيَّرتُ من أبياتها البالغة مائة وستة، أثبتها المؤلف كاملة:

لا تَلمْني على الفلاحة واعلمْ
أنها من أجلِّ كسْبٍ وأثْرىٰ
وبها صنتُ ماء وجهي عن النا
سِ جميعاً وعستُ في القوم حُرّا
... كم رأينا مُدرِّساً ومولًّى
حقُّهُ أن يكون منه مُعَرّى
ضِحْكةً للورى المدرِّسُ والحا
كمُ تَلْقَى وليس يُحسنُ يَقْرا
.. إنّ منهم من كان يلثغ بالقا
فِ، ومنهم مَنْ كانَ يلثغُ بالرّا
... والذي كاتبَ التتار ومَنْ سا
رَ اليهمْ قصداً فأثْنَى وأطرى
والذي قد أتى الفواحشَ واستكْ
بَرَ فاسألْ ماذا جرى إذْ تَجرّا
والذي مَيْلُهُ الى نظْم دوبيـ
ـتٍ وتقريبِ مَنْ يذاكرُ شعرا
وله في أكْلِ الحشيشةِ رأيٌ
وافقَ الفرعُ فيه ليلاً وفجرا
... كلما قلتُ دولةُ الحاكم الجا
ئرِ زالتْ، قامتْ علينا بأخرى
وتَصدُّوا لآكِلِ الوقْفِ حتى
ذَمَّهُمْ عارفوه نظماً ونَثْراً
... فأنا اليوم أنزهُ القوم نفْساً
بخلاصي منهم وأرْوحُ سِرّا
... صانني الله عن مزاحمة القو
مِ على منصبٍ فيا رَبِّ صبرا
رَبِّ سَلِّمْ فيما تَبقَّى ولا تُحْـ
ـوِجْ الى من يستعبد الناسَ قَسْرا
فتَراهم لأجل حاجتهم بَيْـ...
ـنَ يديه في قبضةِ الذلِّ أسْرَى
حسَدَتْني جماعةٌ قال منهمْ
قائلٌ مَن هذا، ومِنْ أين أثْرى؟
ويْحَهُمْ ربُّنا هو الرازقُ يُعْطي
فلا يُسْأَل، ويعطي كثرا..»[50]

ولم أجد شاعراً استطاع أن يفوق أبا شامة في فضح عيوب المجتمع، وعرض ظواهرها المَرَضيَّة، رافضاً كل أنواع الغبن البشري، والنفاق الاجتماعي والكذب والتدجيل.. ، كالشاعر البوصيري (شرف الدين محمد بن سعيد المتوفى سنة 696 هـ/1296 م) الذي ذاع صيتُه، إذ شَذَّ عن أترابه وشقَّ طريق النقد السياسي الاجتماعي... ويعتبر

أجرأ شعراء تلك الحقبة على تسجيل هفوات قومه شعباً وحكاماً ومواطنين[51].

ومن شعره النقدي المسؤول، أنقلُ بعض ما أورده **الصلاح خليل الصفدي** في كتابه القيم «الوافي بالوفيات» حول كتّاب عصره من «مباشري الشرقية»:

«أمولايَ الوزيرَ غفلتَ عمّا
يتمُّ من اللئام الكاتبينا
فكم سرقوا الغلال وما عرفْنا
بهم فكأنما سرقوا العيونا
ولولا ذاك ما لبسوا حريراً
ولا شربوا خمورَ الأندرينا
وقد طلعتْ لبعضهمُ ذقونٌ
ولكن بعدما نتفوا الذقونا
تفقَّهتِ القضاةُ فخان كلٌّ
أمانتَهُ وسمَّوْهُ الأمينا»[52]

وله قصيدة أخرى نقدية لا تقف عند حد العرض، بل يجأر صاحبها بصوته المكلوم وقلبه المحروم، ونبرةٍ فيها كل استغاثات الضمير وجراحه. إنها قصة فقره هو وعياله الى حال يُرثى لها، ولا يجد من يُعيله هنا غير قلمه الحر، ولسانه الفصيح المتفنّن:

يا أيها المولى الوزيرُ الذي
أيامُهُ طايعةٌ أمْرَهْ
إليك نشكو حالنا إننا
حاشاك، من قومٍ أُولي عُسْرَهْ
في قِلّةٍ نحن، ولكن لنا
عائلةٌ في غاية الكثْره
... وأقبلَ العيدُ وما عندهم
قمحٌ ولا خبزٌ ولا فِطْرَهْ
فارحمهمُ إن عاينوا كعكةً
في يد طفلٍ أو رأوا ثمْرَهْ
تشخصُ أبصارهم نحوها
بشهقةٍ تتْبعُها زفْره
كم قائل يا أبَتا منهمُ
قطعتَ عنا الخيرَ في كَرَّه
ما صرتَ تأتينا بفلسٍ ولا
بدرهم وَدِقٍ ولا نُقْره
وأنت في خدمة قومٍ فهل
تخدمُهمْ يا أبَتا سُخْرهْ؟»[53]

وقد لا نَحيد عن الموضوعية إنْ نحن عرضْنا لنماذج أخرى من شعر **البوصيري** الذي تقرأه اليوم فتشعرُ وكأن صاحبه يعيش بين ظهرانينا، يُبَلسمُ جراح الفقراء والجياع بشعره، ويسمو معهم الى بعض مراتب العزاء. لكننا نفضِّلُ أن نعرض نماذج أخرى لشعراء آخرين نَهَدوا للفساد والظلم، ولامَسُوا جدار العلة الاجتماعية المتفشية في كل زمان ومكان.. ومن أمثال هؤلاء الشاعر **ابن المُنَيِّر** (أبي العباس أحمد محمد المتوفى 683 هـ). وقد مارس مهمة القضاء فحكَمَ وعدلَ وقدَّرَ القضاةَ العادلين وذلَّلَ الجائرين.

وها هو ذا يمدح القاضي الأديب **شمس الدين ابن خلّكان**:

«ليس شمسُ الضحا كأوصاف شمس الدْ
دِينِ قاضي القضاةِ حاشا وكَلَّا
تلك مهما عَلَتْ محلًّا ثَنَتْ ظِلْ
.. لًا وهذا مهما عَلاَ مَدَّ ظِلًّا»[54]

أما القاضي الظالم الذي يهجوه شاعرنا هنا، فهو **زين الدين بن أبي الفَرَج** لَمّا نازعه في الحُكْم:

«قُلْ لِمَنْ يدَّعي المناصب بالجَهْ
... لِ. تَنَحَّ عنها لِمَنْ هو أعلمْ
إنْ تَكُنْ في ربيع وُلِّيتَ يوماً
فعليكَ القضاءُ بعدُ مُحَرَّمْ»[55]

أما الشاعر **شهاب الدين الأعرج السعدي** (توفي سنة 785 هـ) فقد تصدى للنقد السياسي العام، بدْءاً

بالشعوب الغريبة، وانتهاءً بالسلطان نفسه. مع الاشارة الى أنّ هذا الشاعر كان مؤدِّبَ أولاد الأكابر، ومع ذلك فقد رفض السياسة المالية الخرقاء في قوله:

«وكيف يرومُ الرزقَ في مصر عاقلٌ
ومن دونه الأتراكُ بالسيفِ والترسِ
وقد جَمَّعَتْهُ القبطُ من كل وجهةٍ
لأنفسهِمْ بالرُّبْعِ والثمْنِ والخُمْسِ
فللتُركِ والسلطانِ ثلث خراجها
وللقبط نصفٌ، والخلائق في السُّدْسِ»[56]

ولم يقف الشعر عند حدود الهجاء والسخرية وعرض السلبيات، بل صار الى الرثاء الذي وظفوه هو الآخر، لإظهار نقمتهم على المفتري والمعتدي، والُمهم وعذابهم لأجل الضحية البريئة.. سواء أكان ذلك لدى عامة الشعب أم في علية القوم.

وخير مثال نسوقه هنا قصة **الأمير تنكز** - سيف الدين أبي سعيد - نائب السلطان **الناصر محمد بن قلاوون، على الشام**. وكان عنوان المسؤول الحكيم الحليم الشجاع المُدبِّر لشؤون الرعية، الحافظ أمانات الناس. أحبه السلطان وأكرمه، وكتب إليه بأحسن النعوت، والألقاب، ما لم يفعله مع نائب غيره. فما كان من الأمراء والنواب الآخرين إلا أن دبّروا له مكيدة محكمة، حوَّلوه بعدها من الرجل النزيه «العفيف اليد والفرج» الى مجرم حرب يستحق عقوبة الاعدام[57]. فكان صوتُ الشعر هنا من أصفى الأصوات وأصدقها، لم يَصْدرْ عن زُلفى أو مصلحة، أو أي إغراء آخر. تجسَّدَ ذلك في مراثي الشعراء **للأمير تنكز**، حَفظتْ فضائل الأمير، وخلّدتّها على الأيام، بعد أن طَمَسها فسادُ الخلق اللئيم، وحاول دفنها مع صاحبها فما أفلح.

ومن جميل ما قرأتُ من هذه القصائد، مرثية الأديب الشاعر والمؤرخ الصلاح **خليل بن أيبك الصفدي**، ضمَّنَها مشاعره الصادقة، وسخطه من الأقدار التي تضع الرفيع وترفع الوضيع؛ والشعر سلسٌ هادىء متزن، ليس فيه تشنج الحاقد أو اختلال المفجوع:

«كذا تَسْري الخطوبُ الى الكرامِ
وتَسْعى تحت أذيالِ الظلامِ
... فكم مَلكٍ غدا في الأَمْنِ دهراً
وآلَ الى انتقالٍ وانتقامِ
اذا ما أَبرمَ المقدارُ أمراً
رأيتَ الصقرَ من صَيْدِ الحَمامِ
وهل يُرجَى من الدنيا وفاءٌ
ولم تُطْبَعِ على رعي الذمامِ
تنكَّرَ يوم تَنْكِزَ كلُّ عُرْفٍ
وسامَ الذلَّ فينا كلَّ سامِ
بكيتُ دمشقَ لَمّا غاب عنها
وأوحشَ أُفْقَها بدرُ التمامِ
فيا تمزيقَ شملِ العَدْلِ فينا
ويا تفريقَ ذاكَ الانتظامِ
ويا لَمصيبةٍ بدمشقَ حلَّتْ
شدائدُها بأحداثٍ عظامِ

ثم يعرض **الصفدي** لعدل المرثيّ وبأسه وشدة هيبته على الأعداء، في معاقلهم، مما يؤلّف الكلام فيه، ويختم قصيدته التي بلغت اثنين وأربعين بيتاً، لا بالاستسقاء والاسترحام، بل بما فيه من خير مفضل عرفها الناس في أيامه وقطفوا ثمارها:

وهيبتُهُ سرتْ شرقاً وغرباً
وشاعتْ عنه في مصر وشامِ
يُراعُ المُغلُ في «توريزَ» منه
ويطرقُ أرضَهمْ في كل عامِ
اذا ما قيلَ: هذا الليثُ وافَى
مَضوا هرباً كأمثال النعام..»[58]

وقبل أن نختم الكلام في هذه الفقرة، لا بد من التعرض لموضوعة أخرى تتصل بموضوعة النقد السياسي والاجتماعي والديني، وهي **أن علاقة الشعراء بممدوحيهم لم تكن تقوم دائماً على مادح وممدوح، يقف الأول في رتبة دنيا والثاني في رتبة عليا، بل كثيراً ما توحّدت الرتبُ وتساوت المقاومات، وصدرَ المدحُ تلقائياً مع خلجات الوجدان، وليس غرضه المدحَ التقليدي، بل شيءٍ آخر هو التقدير الذاتي، والموضوعي في آن معاً، تماماً** كالذي رأيناه في شعر النقد المسؤول الذي سيطر عليه الهجاء والنقمة والنفور المؤلم..

واذا بنا هنا أمام نقد آخر يسوده الرضا والسعادة، وشيء من الاسهام ببناء صرح الحضارة الانسانية.. ولا فرق حينئذٍ بين مَن هو في سدّة الحكم أو هو في صفوف الشعب[59].

ولا ننسى انحراف بعض الشعراء عن جادة الشعر المسؤول، وحتى الفكه الظريف الماجن، الى ناحية أخرى، لا يكاد يخلو منها عصر من العصور، ولا شاعر من الشعراء؟ عنيتُ ناحية المالأة والمصانعة الضعيفة التي تجعل الشاعر أحد الشحاذين المُداجين، يبيع شعره بدريهمات، كما يباعُ الرقيق في سوق النخاسة. وليس لنا تحليل هذه الظاهرة؛ حَسْبنا القول: إنّ النفوس معادن، فمنها الجوهر الثمين، ومنها الحديد الصدئ أو ما هو أرخص بكثير. فلا نَعجبنَّ لوجود صِنْف من الشعراء باعوا أنفسهم وبضاعتهم في سوق الكساد؛ حتى الشاعر الجواد، نراه قد حاد عن أصالة جوهره، وغدا شاعراً من الدرجة الأخيرة؛ كحال كثير من الشعراء الكبار، بدءاً بالمتنبي وصفي الدين الحلي، وابن نباتة، وانتهاء بالشعراء الرصينين المتزنين جداً.

من هؤلاء الأخيرين، نذكر «الشيخ الفاضل العالم ابن الصاحب (أحمد بن يوسف المتوفى سنة 668 هـ).

وكانت له وجاهة ورياسة، ثم ترك ذلك، وأقبل على الحرفشة (أي فعل الحرافيش، وهم من أبناء الرعاع والسوقة المتبذلين المتحللين من القوانين، أو بالأحرى المهملين لذلك إهمالاً كلياً) وصحبة الحرافيش والتشبه بهم في اللباس والطريقة وأكل الحشيشة..»[60].

ومن شعره في مدح الحشيشة، هذا المقطع:

«في خمار الحشيش معنى مرامي
يا أُهيلَ العقول والافهامِ
حَرَّموها من غير عَقلٍ ونَقْلٍ
وحرامٌ تحريمُ غير الحرامِ..»[61]

* * *

خاتمة:

لعلنا أطلنا في الكلام، وبلغنا بالقارئ بعض حالات الملل. وله أن يشعر بذلك لأن كثيراً من القراء والمثقفين قد مروا في دراساتهم الشخصية أو الجامعية، بهذا العصر ـ العصر المملوكي ـ مرور الكرام، وتلقوا أحكاماً اعتباطية بحق هذا العصر، فقيل: «انحطاط» وقيل: «فترة مظلمة» وقيل، وقيل.. وكنا من هذا الرأي قبل ولوج عالمه وتبين معالمه المضيئة في أكثر من جهة، والحقبة طويلة. **واذا كان لهذا البحث من غاية فهي تغيير الصورة التقليدية الشائعة، والعودة، بغيرة وإخلاص تراثيَّيْن حضاريين الى آفاق العصر المملوكي، فنقرأ بتؤدة صفحاته وآثاره التي شمختْ على الزمن، فتصدَّتْ كبريات المكتبات، واستعان بها معظم المؤلفين والكتّاب من كل لون وفن..**

وأما الشعر الذي كان مدار حديثنا فلم يكن فقط لعبة أو حرفة مُورستْ بمهارة وبراعة وتفنن كلاميّ من الخارج.. بل كان الى حد بعيد أحد أبرز منارات العصر مواكبةً ونقلاً وتأريخاً لشتى الجوانب والمرافق؛ هزّتْ أصحابه الانتصارات العظيمة

فبادلوها بشعرٍ إن لم يكن عظيماً فقد تمكن من القلوب واستحوذ الرضى، وربما قصدتْ الجانب الديني القومي الذي أولاه الشعراء، ومعهم ملوكهم وسلاطينهم، بكل ما ملكتْ أيمانُهم من حماسة وتضحية في سبيل الجهاد، يدفعهم الى ذلك أيضاً شعورهم بالمسؤولية العظمى الملقاة على عواتقهم، إذ انهم كانوا صوت الحق ولسان الخَلْقَ.

وهكذا نستطيع أن نسجِّلَ للشعر فضله. فقد كان حقاً صورة صادقة عن الملاحم الاسلامية والأحداث الكبرى ضد الفرنجة والتتار، اذ إنه أدّى واجبه كاملاً سواء أكان في الاستثارة والتحريض، أم في وصف الانتصارات والفتوح الكبرى، أم في تزجية البشائر والتهاني. وهو بعد هذا كله صفحةٌ مشرقة للقومية العربية.»[26].

الحواشي

(1) راجع سيرة حياته وبذة عن مؤلفاته في «الاعلام» 319/1، والدرر الكامنة 1/371-373، و«البداية والنهاية» 158/14.

(2) عن د. عمر موسى باشا «ابن نباتة المصري»، دار المعارف بمصر، ص 156.

(3) المرجع السابق، ص 157.

(4) نفسه، ص 159.

(5) ديوان صفي الدين الحلّي، دار صادر، بيروت، ص 210-212.

(6) نفسه، ص 219.

(7) ياسين الأيوبي «صفي الدين الحلّي» دار الكتاب اللبناني، ص 51.

(8) المرجع نفسه، ص 42.

(9) راجع هذه القصائد في «ديوانه»، طبعة بيروت، (ص ص 705-762).

(10) «ديوانه»، ص 706.

(11) راجع نموذجاً لتوقيع ابن نباتة في كتاب: د. عمر موسى باشا: «ابن نباتة المصري»، ص 205-206.

(12) المُشدّ هو الموظف الذي يرافق الوزير ويستخلص الأموال وما يشبهها. ولد سنة 602 هـ وتوفي بدمشق (عن «النجوم الزاهرة» 64/7).

(13) راجع ما كتبه صاحب «النجوم» 66/7 و«شذرات الذهب» 285/5-286 و«الأعلام» 177/8.

(14) النجوم الزاهرة، 219/7-220.

(15) نفسه. 7/ص 224.

(16) نفسه، 189/8-190.

(17) نفسه، 54/8.

(18) راجع تفصيل ذلك في كتاب: أبو العباس القلقشندي وكتابه «صحيح الأعشى»، ص 95 وما قبلها.

(19) ابن الأزرق «بدائع السلْك في طبائع المُلْك»، جزء أول، ص 9.

(20) ولد ابن شقير في دمشق، سنة 606 هـ وتوفي فيها سنة 669 هـ (عن النجوم الزاهرة 234/7).

(21) ولد السليماني في إربل سنة 602 هـ وتوفي بمدينة الفيوم بمصر سنة 670 هـ (عن النجوم الزاهرة 236/7).

(22) ولد التلعفري - وهو من «تَلَّعْفَر» احدى ضواحي الموصل - وتوفي بحماه سنة 675 هـ (راجع «الشذرات» 349/5 و«النجوم» 255/7 و«فوات الوفيات» 62/4، 71). وللتوسع أكثر من ذلك، راجع: د. عمر موسى باشا: «الأدب في بلاد الشام»، ص ص 356-378. . .

(23) عن النجوم الزاهرة 369/7. وقد ولد ابن تولوا سنة 605 هـ وتوفي سنة 685 هـ.

(24) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات 441/2.

(25) عن «ابن نباتة المصري»، ص 229.

(26) عن المرجع السابق، ص 245-246.

(27) ن. م. ص 261.

(28) نفسه، ص 258.

(29) ياسين الأيوبي «صفي الدين الحلّي»، ص 50.

(30) ديوان صفي الدين الحلّي، ص 215-217.

(31) مقدمة ديوان صفي الدين الحلّي، ص 12.

(32) سوف نعرض لكل هذه النقاط في سياق البحث..

(33) ابن الصيرفي «نزهة النفوس والأبدان»، مجلد أول/44-45.

(34) ابن كثير «البداية والنهاية»، مجلد 327/13-329. ولم يذكر صاحب «فوات الوفيات» هذه القصيدة في المختارات التي أثبتها (82/4-96) والظاهر ان ابن شاكر الكتبي وكثيراً غيره، لا يحتفظون من أشعار الشعراء، إلا ما كان في الغزل والنسيب، والمعاني الطريفة الأخرى. أما شعر السياسة والحمية القومية والدينية فلا يعيرونها كبير التفات.

(35) النجوم الزاهرة 159/7-160 راجع في المصدر نفسه أقوالاً مشابهةً لقول الشهاب محمود، للشاعرين: ابن النقيب الكناني (ت 678 هـ) والموفق عبدالله بن عمر، الورن (ت 677 هـ)، ص 160.

(36) عن د. عمر موسى باشا: «الأدب في بلاد الشام»، ص 477. وللشاعر الأنصاري نفسه، وفي المرجع نفسه قصائد أخرى في (عين جالوت) وغيرها، لا تخلو من جودة وصدق، ص 339 و475.

(37) خليل الصفدي «الوافي بالوفيات» 362/4.

(38) راجع: الاعلام 256/2.

(39) «الوافي» 362/4-364.

(40) عن: «ابن نباتة المصري»، ص 160 وفي هذا المرجع مزيد من الشواهد الشعرية على «دولة الشعر»، ص 161 وما بعدها..

(41) راجع التعليق عليها في كتابنا: «مذاهب الأدب ـ معالم وانعكاسات»، الجزء الثاني «الرمزية»، ص 181-182.

(42) النجوم الزاهرة 366/7-367. وللشاعر بهاءالدين ابن الفخر الاربلي (ت 683 هـ) شعر شبيه، في أطايب العيش، وقد جعلها خمسة. (شذرات الذهب 383/5).

(43) النجوم الزاهرة 345/7.

(44) المصدر السابق، ص 346.

(45) شذرات الذهب 364/5.

(46) ديوان صفي الدين الحلّي. المقدمة، ص 10.

(47) القرآن الكريم: سورة النساء/86.

(48) راجع تحليلنا لظاهرة المبالغة في المدح الشعري في كتابنا: «صفي الدين الحلّي»، ص 208-209.

(49) ديوان المتنبي (شرح العكبري). الجزء الأول، ص 182، من قصيدة يمدح فيها كافور..

(50) أبو شامة: «تراجم القرنين السادس والسابع»، ص ص 222-226. وقد وقع في الأبيات بعض الخلل العروضي، صوّبتُ بعضها وقدمتُ وأخرتُ وفقاً لسياق الموضوع. والبيت الأخير ناقص مضطرب الوزن، لم أهتد الى تقويمه.

(51) أنظر كتابنا «صفي الدين الحلّي»، ص 119.

(52) الوافي بالوفيات 106/3.

(53) نفسه، ص 108-109.

(54) النجوم الزاهرة 362/7.

(55) نفسه، والصفحة نفسها.

(56) الدرر الكامنة 335/1-336. راجع في الموضوع، والمصدر نفسه(ص 228) حكاية الشاعر القاضي ابن أبي الرضاء الذي حارب الفساد والنواقص، حتى ولو كانت من السلطان برقوق نفسه، الأمر الذي أدى الى عذابه فمقتله، فرثاه الشعراء بصدق متناه.

(57) راجع القصة في: الوافي بالوفيات 420/10-430.

(58) الوافي بالوفيات 433/10-434.

(59) انظر بعض ما أورده صاحب «ابن نباتة المصري» عن مدح الشاعر لبعض الكتاب والقضاة، (ص ص 165-182). وكذلك مدح الشاعر علي بن مصعب للقاضي المؤرخ ابن خلكان (النجوم الزاهرة 354/7) ومدح الشاعر ابن تميم الدمشقي لخصال القتال والشجاعة في الجهاد (النجوم 367/7).

(60) و(61) تاريخ ابن كثير «البداية والنهاية» 313/13-314، وانظر كذلك «شذرات الذهب» 403/5-404، ابن الصاحب صفي الدي بن شكري المصري، ينظم شعراً جميلاً في الحشيشة.

(62) د. عمر موسى باشا: «الأدب في بلاد الشام»، ص 481، وانظر في هذا الصدد مقالة د. شوقي ضيف، عن هذا العصر، في مجلة «المجلّة» المصرية عدد شباط سنة 1967، وقد لخصناه في كتابنا «صفي الدين الحلّي»، ص 144-145.

ثبت بأسماء المصادر والمراجع:

1 ـ القرآن الكريم؟

2 ـ ابن الأزرق (أبو عبدالله): «بدائع السِّلْك في طبائع الملك»، جزءان. بغداد، سنة 1977.

3 ـ الأيوبي (ياسين): «صفي الدين الحلّي»، دار الكتاب اللبناني. ط أولى. بيروت، سنة 1971.

4 ـ الأيوبي (د. ياسين): «مذاهب الأدب ـ معالم وانعكاسات»، الجزء الثاني «الرمزية» المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر. ط أولى. بيروت، سنة 1982.

5 ـ باشا (د. عمر موسى): «ابن نباتة المصري أمير شعراء المشرق»، دار المعارف بمصر، طبعة ثانية. سنة 1972.

6 ـ باشا (د. عمر موسى): «الأدب في بلاد الشام»، ط 2، المكتبة العباسية، دمشق، سنة 1972.

7 ـ ابن تغري بردي: «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة»، مصور عن دار الكتب المصرية.

8 ـ الحنبلي (ابن العماد) «شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، دار المسيرة، طبعة ثانية، بيروت، سنة 1979.

9 ـ الزركلي (خيرالدين) «الأعلام». دار العلم للملايين. ط 4، بيروت، سنة 1979.

10 ـ أبو شامة المقدسي (شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل): «تراجم القرنين السادس والسابع».

11 ـ الصفدي (صلاح الدين ـ خليل): «الوافي بالوفيات» فرانز شتاينر. ڤيادن..

12 ـ صفي الدي الحلّي (عبدالعزيز بن السرايا): «ديوان صفي الدين الحلّي»، دار صادر. بيروت، لا ـ ت.

13 ـ الصيرفي (ابن داود) «نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان». جزء أول. دار الكتب المصرية. القاهرة.

14 ـ عبدالكريم (أحمد عزت) «أبو العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى»، الهيئة العامة للكتاب. القاهرة، سنة 1973.

15 ـ العسقلاني (شهاب الدين ابن حجر) «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»، دار الجيل، بيروت، لا تاريخ.

16 ـ الكتبي (ابن شاكر) «فوات الوفيات»، تحقيق د. احسان عباس. دار صادر، بيروت، سنة 1974.

17 ـ ابن كثير: «البداية والنهاية»، دار الفكر، بيروت، سنة 1978.

18 ـ المتنبي (أبو الطيب)، ديوانه بشرح العكبري، القاهرة، سنة 1971. تحقيق: مصطفى السَّقَّا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي.